رائحة الرحيل

مجموعة قصصية

هايدي عمار

إلى الاماكن المهجورة المحتفظة برائحة من سكنوها

إلى الارواح المهاجرة التي ضيعت طريق العودة

لعل كل شيء يعود لنصف ما كان عليه حتى..

طنط ماما

لقد كان يوما عاديا، وحكايتي ايضا مفرطه في العادية، ولكن تفاصيلها مازالت تؤلمني حتى الان ..

في فجر يوم الاثنين من شهر سبتمبر في عام ١٩٨٨ ايقظتني عمتي، نعم هذه انا....الطفلة قمحية البشرة التي تغط في نوم عميق لم يقطعه سوى انامل عمتي التي داعبت وجهي الصغير، كنت بعمر الخامسة ، بالطبع لن اتذكر كل احداث ذلك اليوم، كانت بضع مشاهد وذكريات فقط علقت في كرت التخزين الخاص بي، وغير قابلة للحذف، ولا اتباهى بتذكر ما حدث صدقوني، فكلما تذكرت اردت الحصول على اله التحكم بالزمن والعودة لذلك اليوم لتلك اللحظة، ربما صفعت عمتي بكفي الصغير على خدها الممتلئ او تشبثت بالسرير ورفضت تركه، من يعلم، على كل حال دعوني احكي لكم قصتي ..

-الى اين سنذهب في مثل هذا الوقت؟ لازالت السماء مظلمه يا عمتي ماذا لو غضب ابي؟

- لا عليك والدك أوكل إلي مهمة ايقاظك وتجهيزك.

لم الح عليها، اكتفيت بتتبعها والاستماع الى تعليماتها، نهضت من الفراش، وصمت الغرفة لا ينافسه سوى صوت تلاحق اجنحه المروحة التي لفح هوائها وجهي، ذهبنا الى الحمام و خلعت عني ملابسي، كانت تتحرك كإنسان الي، وجهت اليها التحذير المعتاد الذي اوجهه لمن يرافقني في رحلة الاستحمام سواء ابي او جدتي او حتى مربيتي التي بسببها اطلقت هذا التحذير وكانت الاشد حرصا بينهم على عدم انتهاكه :

- انتبهي من الماء لا اريده باردا ولا صابون في عيني

كانت شخصيتي قوية عندما كنت طفلة عكس ما انا عليه الان!

المهم جاء هذا التنويه بعد ان قامت مربيتي او كما كنت ادعوها(داده ام عطية) بسكب الماء البارد على جسمي دفعه واحده، ولم يكن الماء ساده بل كان محمل برغوات الصابون، لم املك من امري شيئا سوى الصراخ، وماهي الا لحظات حتى وجدت مربيتي او (داده ام عطيه) تقفز

في مكانها تصرخ وتبكي بصوت عالي لم اعلم سبب تصرفها هكذا في تلك اللحظة؛ الا بعد ان تحركت جثتها الضخمة من امامي، ورأيت الكرسي الخشبي ملقى على الارض وبجانبه والدي كان وجهه مفجوع، واثار بقايا النوم باديه عليه؛ فقد افاق من قيلولته بعد ان سمع صراخي و قد ساعد الصدى في حمامنا الازرق الواسع على انتشار الصوت اكثر، لقد خاف ظن انها كانت تضربني او، ربما ظن انها كانت تتحرش بي من يدري؛ فحمل اقرب ما وصلت له يديه و وجه ضربته نحو ظهرها.

بعد ذلك اليوم لم استحم لمدة طويلة، لا اعرف كم يوم بالتحديد ولكن بعد ذلك تولى ابي لفترة امر استحمامي، والحرص على احضار سطل الماء الساخن الذي يخففه بماء بارد ليصبح فاترا.

اما عمتي فلم تكترث بإحضار السطل، او حتى بهز رأسها واعلامي أنها اخذت جملتي بعين الاعتبار أو لا، فتحت الدش وكما هو معتاد كانت المياه بارده، ربما اكثر بروده تعرض لها جسدي على الاطلاق، من قوتها انتابتني قشعريرة لم استطع الصراخ كما سبق لي وفعلت مع

(داده ام عطية) التي اشفقت عليها و احسست اني ظلمتها برده فعلي، و ادركت حينها انه ربما الغريب يحمل لي حنانا اكثر من اقرب الناس لنا، توسلت اليها ووجهي مبتل بخليط من الماء البارد والدموع الدافئة ولكنها اجابت :

- دقائق وانتهي

لم تعلم ان هذه الدقائق كانت جحيم بارد بالنسبة لي، اخبرتني جدتي ذات مره ان الطيبون يذهبون الى الجنة، اما الاشرار - وعمتي بالتأكيد واحدة منهم! - سيذهبون للنار لم يخيفني الامر، لم افهم ماهي النار على كل حال، ولكن فهمت قسوة الاحساس الذي تخلقه دفعه واحده من الماء البارد على رأس فتاة صغيرة.

كان هناك رجل عجوز يجلس امام باب عمارتنا كل صباح، ويقوم بتخويف الاطفال المشاغبين الذين يمرون من امامه :

- من يكذب يدخل النار

هذه الجملة لم تكن لتخيفني من الاساس، عندما كنت اسمعه يرددها بصوته الجهوري وانا جالسه في غرفتي .

ربما لو تم استبدالها بعبارة :

- من يكذب يدخل الثلاجة او الفريزر.... لكان سيصبح وقع الجملة قوي في نفسي.

بعد دقائق من التعذيب المتعمد، قامت عمتي بتجفيف جسدي وشعري و حاوطتني بالمنشفة التي ثبتتها بيديها، ودفعتني نحو غرفتي حافيه القدمين، استشعر البرودة الجريئة القادمة من البلاط ، اخرجت من كيس رمادي كبير فستان جديد، كان لونه وردي مليء بزركشات على شكل ورود، وضعته على السرير يبدو انها ابتاعته لي، او اخذته من خزانه ملابس ابنتها التي تكبرني بسنة

واحدة كما فعلت من قبل عندما ارتديت فستان كحلي مخملي الملمس بياقة بيضاء تغطي الصدر و ربطه حمراء عند الخصر، كنت سعيدة بذلك الفستان، اخذني ابي وقتها للمصور؛ لالتقاط صور لي بمفردي، شعرت بأني أميرة وانا ارتديه وعندما عدنا للمنزل خلع عني الفستان، ولم يضعه في الخزانة كحال بقيه ملابسي بل في كيس بلاستيك وعندما سألته عن السبب :

- الفستان لمريم بنت عمتك

غضبت يومها، احسست ان السعادة التي شعرت بها اثناء ارتدائي الفستان كانت مستعارة هي الاخرى، وليس من حقي ان اشعر بها، ابتعدت قليلا عنها وهي تحمل الفستان وعلى وشك وضعه على جسدي :

- فستان مريم؟

- لا فستانك انت يلا تعالي هنا خليني اخلص!

لم اشعر بصدق كلامها، ولكني اقتربت منها، البستي الفستان و حذائي الابيض اللامع، و جففت شعري القصير مره اخرى، وربطت جزء منه وتركت الباقي كانت تسريحة شعري المعتادة، صرت مستعده لشيء لم اكن اعلم ما هو.

اخبرتني ان اذهب الى الصالون وانتظر قدوم ابي من الخارج كانت في ذلك الوقت تأخذ بعضا من ملابسي من الخزانة وتضعها في حقيبة سوداء كبيرة اشرت الى اصحابي المقربين ليلى وسعدية وحمادة عرائسي القطنية :

- سأخذهم معي الى الصالون

رفضت رغم الحاحي؛ خوفا من احداث الفوضى، وعدتني انها عندما تنتهي مما تفعل ستنادي علي لألعب معهم في غرفتي - واكم من وعود قطعت لي و نكثت- وكانت تلك هي اخر مره ارى فيها العابي المفضلة، او كما احب ان ادعوهم.. اصحابي.

انتظرت لوقت لا اعلم ان كان طويل او قصير؛ لأني غفوت قليلا، بعد ان طفت ارجاء الغرفة جيئة وذهابا بلا هدف، اراقب الرسومات المنقوشة على السجاد، و أعد النقاط السوداء المطبوعة على البلاط، احاور صرصار صغير وجدته يمشي وحيدا مثلي ؛ لابد ان عمته ايضا طردته من الغرفة :

- على فكره لست وحدك

فتحت عيناي لأجد أبي يقف أمامي، كنت ادعوه وقتها باسمه مصطفى من دون القاب ، كان يتحدث مع صديقه الطويل الممتلئ الذي لا اذكر اسمه ولا حتى ملامحه، كان خافت الحضور رغم ثرثرته التي لا تنتهي، و لولا صوت ضحكته لما شعرت بوجوده كان ثقيل الدم، مبتسم على الدوام، تشبه ملامحه تلك البقرة الحمراء ذات الاقراط الدائرية المطبوعة على علبة الجبن الصفراء التي اكره تناولها والقيها دوما في سلة القمامة، - لا احد يخبر امي لانها ستغضب بالتأكيد-.

-اهلا بسوسو الحلوة

نسيت أن اخبركم، اسمي سالي ويطلقون علي مسمى سوسو او سوسا للدلع.

جريت نحوه وطلبت أن يقرب اذنه مني لأخبره سرا فحملني وهمست له، كان صوتي مسموع لصديقه الضخم :

- عمتي ايقظتني من النوم، لا ذنب لي وحممتني بماء بارد جدا جدا، وجمعت كل ملابسي في حقيبة يبدو انها تريد سرقتها!

يقولون أن الفتنة اشد من القتل، لكنها هوايتي المفضلة، على الاقل في فترة الطفولة ، ما إن سمعا ما قلته حتى اصابني صوت ضحكاتهم بالإزعاج، فسددت اذناي بكلتا يداي؛ كي لا اصاب بالصمم، اخذ يلقيني في الهواء عاليا

ويلتقطني بكلتا يداه، اخذت اضحك وانا ارى الشقة من الاعلى، لم اعلم انها ستكون اخر ضحكاتي في هذا المنزل.

في النهاية جلس على الكنبة، وجلست بجواره بعد ان ذهب صديقه الى المطبخ، مال نحوي قليلا و همس لي :

- انا اخبرت عمتك بتجهيز أغراضك لأننا سنذهب لتقابلي ماما الم تشتاقي لها

ماما!! في تلك اللحظة، كنت لازال اذكر هذا اللقب، كنت اطلقه على امرأة كانت تعيش معنا لا اراها الا قليلا، ولم يطبع في ذاكرتي لها اي شيء في ذلك الوقت، سوا موقف واحد سأذكره لكم على كل حال.

قبل بضعه اشـهر

كانت الشـمس قد اختفت منذ قليل، تاركه ورائها سـماء برتقالية اللون ، لكن على الرغم من ذلك لم يفقد الورد الابيض والاشـجار شـديدة الخضار رائحتهما الطازجة المنعشـة التي احببتها دوما، وكانت من اسـباب لقدومي الى النادي بعد التأرجح على الارجوحة وتناول المثلجات بنكهة الفراولة والمانجو في الكأس الزجاجي، كنت اجلس على الكرسـي الخشـبي و جلسـت هي بجواري ، لا اذكر من ملامحها شـيء سـوا ابتسـامتها عندما سـألتني وانا التهم المثلجات بنهم غير مكترثة بفسـتاني الذي سـقطت عليه قطرات من الايس كريم :

-مبسـوطة يا سـالي؟

نظرت إليها وكأني اسمع اسمي لأول مرة؛ لم اعتد كثيرا في تلك الفترة ان انادى بإسمي فقط، فغالبا كانوا يدعوني بأسماء الدلع، الا اذا جاء شخص لا اعرفه وسأل عن اسمي، لم اعلم انها عندما دعتني بإسمي ستغدو كأي انسان غريب عن ذاكرتي في سنواتي الاولى في الحياة.

اجبتها بالموافقة، وقد طبعت اثارا من المثلجات حول فمي واسناني التي اكتست بلون برتقالي مائل للاحمرار كاشفه عن ابتسامه حماسيه وجهتها لها، بعد ان انتهينا من نزهتنا الاسبوعية وركبنا سيارة الاجرة :

- "تيته" مريضة وتحتاج لأدوية كانت قد اوصتني بإحضارها لها سنذهب لمنزل جدو الان قبل ان نعود للمنزل

حزنت لمرض جدتي، واردت الذهاب لرؤيتها مع أمي .

استقبلنا جدي عند باب المنزل مهللا ترحيبا بقدومي كما يفعل دوما، حتى وان مر على لقائي به بضع ساعات فقط.

كان منزل صغير دافئ كجسد جدتي، و وقور كطلة جدي ، كان مكاني المفضل ولازال.

رغم بساطته و جدرانه التي لم تطلى منذ زمن بعيد، وطبعت على كل رقعه منه ذكريات لا تحصى منذ زواج جدتي وجدي في اواخر الخمسينات، و مولد أمي في احدى غرفه ولحظات حياتها المتقلبة و اول مقابله بين ابي وجدي عندما تقدم لطلب يدها، حفل خطبتها، والاحتفال بقدوم اول حفيد ابنه خالتي نجلاء، والاثاث القديم المكتسي بالبياضات والمحافظ على اصالته وجودة معدنه ولم يتغير مع مرور الزمن على عكس اناس كتر .

دخلنا غرفتها ، كانت مستلقيه على السرير وعلى وجهها ابتسامتها التي لم تفارقها، و كم هو لذيذ ذلك الشعور الدافئ للجدات؛ مزيج من حنان الام وعطف الملائكة،

اقتربت منها وضمتني دفنت وجهي في صدرها ونعومه قطن ملابسها تدخلني الجنة بسلاسة وتخدر احساسي بكل ما يحيط بي لأستيقظ من غفوتي الهانئة واجدها لازالت تداعب شعري أما امي التي جلست عندما دخلنا غرفة جدتي على طرف السرير لم تعد موجودة.

انتفضت من السرير وقفزت على الارض ببلاهة عندما لم اجدها

- ماما ماما هي نسيتني والا ايه يا تيته

فتشت في ارجاء المنزل، لم يتبق من حضورها سوى رائحه عطرها الانثوي القوي الذي كلما استنشقته ذكرني بدموعي التي استمرت لساعات من اختفائها، منذ ذلك اليوم لم يخيفني سوى ان استيقظ واجد من احبهم قد رحلوا عني من دون اخباري.

في تلك الايام التي قضيتها بصحبه جدي و جدتي كنت محور اهتمامهما، نسيت غير متعمدة أمي وأبي ، النزهات لحديقة الحيوان ومكتبة الطفل التي اخذني لها جدي وتعرفت فيها على صديقي الابدي.. الكتاب، وقبل ان اتعلم الحروف الابجدية في الحضانة علمني اياها جدي، كنت عصر كل يوم اجلس على الكرسي البلاستيكي الصغير تفاحي اللون، و كان هو يتمدد على سريره بجانب مكتبه الصغير المملوء بالأوراق وعليه برواز يحيط بصورته الملونة مع جدتي مبتسمان للكاميرا، ويضع قليلا من عطره العتيق الذي كان يفوح شذاه في اركان المنزل؛ بمجرد ان يفتح غطاء زجاجته ويضع قليلا على كفيه ويمسح ذقنه، كلما كنت اتعلم حرف جديد وادونه على صفحات الدفتر الصغير مرات متكررة كان يكافئني برسم نجمات صغيرة في أسفل الصفحة وبجانبها وردة صغيرة وكنت اطالبه دوما برسم شجرة بجوارها، لازالت النجمات والورود والاشجار مطبوعة في قلبي.

وجدتي والحدائق شديدة الخضار التي اخذتني اليها بصحبة صديقاتها واحفادهن والبالونات التي لم تفارق خيوطها يداي ، لم انسى اهتمامها بتجهيز الماء الدافئ قبل ان استحم والمنشفة التي كانت تضعها على عيناي كي لا يدخل فيها الماء و الشامبو ، والدجاج " المحمر" في السمن البلدي المحشي بالرز الذي استحال لونه اقرب الى الرمادي بفعل البصل والفلفل الاسود والملوخية بالأرانب التي فتشت فيها عن الارنب كالذي شاهدته في حديقة الحيوان ولم اجده بداخلها، لازلت اذكر الاغنية التي ألفها جدي وكان يغنيها لجدتي وقت تحضيرها الطعام "يا ماما الحاجة قومي صلي الفرض وصومي" كان يرددها دوما وكنت اغني معه رغم عدم معرفتي وقتها بماهية الصلاة او الصيام.

كنت في عين النعيم رغبت لو توقف بي الوقت عند تلك الايام لو كان الزمن انسان لأخبرته :

فقط يا زمن توقف لا تتحرك ارجوك من فضلك، اريد الاستمرار في العيش بتلك الطريقة، لا اريد الخروج من

الجنة كما فعل ادم من قبل، انا لم أكل تفاحة لأخرج منها انا لا احب التفاح حتى فلماذا اخرج من الجنة؟

لماذا يأخذني ابي بعد بضعة اسابيع من منزل جدي وجدتي ويعيدني لغرفتي والعابي؟ لماذا يذكرني بأن هناك شيء ما ناقص في حياتي؟ لا اتذكر ان هناك لقب يدعى ماما، وان لابد ان يكون لكل طفل أم، كنت كلما جلست امام التلفاز، ووجدت أمرأه بشوشة تظهر على شاشته او مرت بقربي أمرأه غريبة دعوتها (ماما)، حتى نهرتني جدتي ذات يوم عن ذلك، عندما جاءت لزيارتي في بيت أبي احدى المرات :

-لا يا سوسو دي مش ماما لا تقولي لأي أمرأه تكلمك ماما

- اذن ماذا اقول؟

-طنط تقوليها لأى أمرأه غريبة لتكوني فتاة مؤدبه اما لقب ماما فلا تستحقه سوى امك

و رغم ان البيت كان مكتظ بالصور المعلقة على حوائطه، الا انني لم ارى سوى صورتي مع ابي بصحبه أمرأه كانت ملامحها في عيناي ضبابية شبه محجوبة.

مرت الايام بشكل طبيعي، وانا مع ابي قضيت بعضا منها بصحبه مريم ابنه عمتي في منزلها عندما كان زوج عمتي يذهب لعمله و على الرغم من ان منزل عمتي كان فاخر المظهر قيم الرائحة الا اني لم استشعر فيه بدفء منزل جدي او امان منزل ابي كان يخالجني شعور نحو عمتي لم افهمه احيانا اشعر بمحبتها، واحيان اخرى اشعر بلا مبالاتها نحوي وكأنها لا تعرفني ، استمرت حياتي على هذا المنوال منذ ان تركتني أمي مع جدي وجدتي وعودتي لمنزل ابي لوقت ظننته الى الابد و علمت بعدها انها كانت اربعة اشهر فقط!

لم انتبه اني خرجت من الشقة من دون توديع اصحابي، وجدت نفسي امام نفس الحقيبة السوداء التي بدت

بحجم اكبر وانا اقف بجوارها مستندة بظهري على سيارة صديق أبي الذي كان منهمك في توديع شقيقته وكأنه يأكد عليها امر ما لم افهمه واعطاها مفاتيح الشقة كان يوصيها بالاهتمام بالشقة واحضار أم عطية لتنظيفها من وقت لأخر تحدثوا كثيرا اذكر ان قدمي آلمتني واردت الجلوس اكره والدي عندما ينصرف عني ويتحدث للأخرين، في ذلك اليوم الذي وقف خارج باب الشقة يتحدث فيها مطولا وبصوت مرتفع مع زوج عمتي عن اشياء لم افهمها كان معهم صديقه ثقيل الدم كنا على وشك الذهاب لحديقة الحيوان كما وعدني منذ فتره لكنه انشغل عني بمناقشات معهم لا اعلم مدى اهميتها، اجتاحني الغضب وقتها واغلقت بقوة باب الشقة في وجههم ورفضت ان افتحه مره اخرى او بالأحرى لم اكن اعرف كيف يفتح، لم يستطيعوا فتحه من الخارج، لا اعلم السبب الى الان و لكني شعرت بسعادة غامرة عندما كنت بمفردي في المنزل، اضطروا لإحضار سلم والصعود عن طريق الشرفة، لسوء الحظ لم استمتع مطولا بالوحدة ولكني علمت ان هذا الشعور سيرافقني الى الابد.

تمللت وانا اقف منتظره والدي لينهي حديثه مع جدي وعمتي وزوجها، لم يكلف احدهم نفسه عناء النظر الي

حتى او تقبيلي كانوا عكس جدتي التي كلما رأتني امطرتني بالقبل ، في ظنهم ان الطفل ينسى ولكن لا يعلمون انه يشعر بمن حوله ويعرف من يحبه ومن يحتقره ولا يطيق وجوده حتى وان اخفوا مشاعرهم وراء الإبتسامة الزائفة التي تجعل وجوههم اقبح مما هي عليه.

اخيرا انطلقنا بعد مشاهد دراميه كالتي اشاهدها في التلفاز لوحنا لهم مودعين كنت اركز بصري على عمتي وارقب دموعها التي وان انهمرت بغزارة في تلك اللحظة فستجف في وقت لاحق على كل حل، وستنسى لوعه الفراق والم غياب شقيقها الوحيد لسنوات، فالحياة كفيله بإلهائها والايام ستصب الجفاء على قلبها ، فالدموع الزائفة اشبه بفيلم محروقه احداثه ونهايته يا عمتي لو تعلمين!

قاد السيارة صديق ابي، وجلسنا نحن بجواره و طوال الطريق كان الصمت رابعنا رغم انهما صديقان ثرثاران، ولكنهما لم يتحدثا منذ ان تحركت السيارة سوى بكلمات مقتضبة عند الحاجه الماسة و ظل ابي او مصطفى كما

كنت ادعوه في ذلك الوقت يتأمل الشوارع شبه الخالية و الاضواء الخافتة المتراصة في تباعد شبه منتظم على الرصيف و تنير على استحياء الطريق، وكأنه يودع كل شيء الى أجل غير مسمى كان يبكي من دون ان تسقط من عيناه دمعه واحدة، بكاء قلبه كان يفضحه، جسده كان حاضر ولكن روحه ظلت جالسه في احدى غرف منزلنا تنظره الى ان بهتت وباتت مسخ يكسوه غبار النسيان.

كانت اذناه لا تحتمل سماع احاديث هزلية أو جدية، ولسانه لا يرغب بنطق حرف

لم يلقي النكات كعادته او يضحك على المواقف الطريفة لصديقه الذي حاول تخفيف الاجواء والقاء نكته ولكن مصطفى اوقفه بنظره واحده من اعين خالية من اي تعبير كانت كفيله حتى لشخص مثل صديقه بفهم مشاعر ابي والتزام الصمت و لم يحاول القاء نكات باليه او فتح احاديث تميل للسفه اكثر من اخذها على محمل الاهمية ومناقشتها، بدوري كنت لا احرك ساكنا وكأني تحولت الى دمية هشة تقذفها الرياح حيث شاءت.

حاول اقناعي مرارا اننا في صندوق صغير سنجلس بداخله قليلا وينفتح الباب لنجد نفسنا في جدة، كان وقع الاسم غريب على مسامعي ، اخبرني ان جدة مدينة اكبر من مدينتنا واكثر هدوئا ، حاول جميع من كانوا حولي في الطائرة إلهائي عن التذمر والبكاء، اعطتني السيدة العجوز التي جلست بجوارنا قطعة بسكويت مغطاه بالشوكولاتة و قصت علي حكايات مشوقه ذكرتني بحكايات جدتي، كل جده لديها ذلك الدفيء والاحتواء التلقائي للأطفال، اعطتني المضيفة الحسناء كراسة رسم والوان خشبية قضت كل تلك الاشياء على شعوري بالخوف من صوت و رائحة الطائرة.

وضعت قدماي على ارض جديدة وشعرت وقتها ان كل ما عشته واتذكره قبل قدومي الى هنا سيمضي ويغدو صورة بولاروید مطموسة المعالم و أن الأمس بات مهجورا كغرفتي الصغيرة التي لم احفظ اركانها و كل محتوياتها بعد ولكن لا ازال اشتاق اليها رغم ذلك، دمياتي الثلاث التي غطاها الغبار حتما ، ليلى وسعديه وحماده اعلم انهم اشتاقوا إلي إن كانوا لازالو اصحاء كاملين ولم تصلهم مخالب الفئران وتلتهم احشائهم القطنية.

كان الزحام شديد وبدا الناس غير مألوفين و متشابهين في الملامح الى حد كبير، تشبثت بيد ابي خوفا من الغرق وسط الحشد المخيف، وجدت نفسي أمامها كانت ترتدي عباءة وطرحه سوداء اللون لم اعرف من تكون من تلك المرأة؟ كانت مبتسمة ولم تتركني للحظة منذ لقائنا، جلست منكمشة عنها في المقعد الخلفي من سيارة الاجرة التي استحوذت اشعة الشمس على مقاعدها، وكلما قربت يدها نحوي ابتعدت، حتى بعد ان رددت على مسامعي مرارا وتكرارا

- انا ماما مش فكراني!

اخرجت من حقيبتها الكبيرة كيس ابيض صغير به ساعة يد على شكل ميكي ماوس و حلوى لولي بوب دائرية اكبر من الحجم المعتاد الذي اعرفه بدوامة من الألوان متداخلة كقوس قزح ، فرحت كثيرا كان لابد ان اكون مؤدبه كما اخبرتني جدتي من قبل واشكرها.

-شكرا ياطنط ماما.

اما الان فالنسخة العشرينية مني ليست قانطة على امي لانها رحلت وتخلت عني وتركتني في منزل جدي و جدتي دون حتى اخباري بالحقيقة ولا على ابي الذي اصبح قليل الحيلة اكثر من قبل، لا رغبه له بالحياة ضائع كقارب خشبي متخبط وسط بحيرة صغيرة يتلمس طريق العودة ولكنه لا يراه، كان من الممكن ان يوقف كل ذلك او على الاقل يتركني اعيش مع جدي وجدتي، ، ولا على عمتي وعواطفها الانتقائية وحنانها المزيف ومشاعرها الأشبه بجهاز التحكم "اون /اووف" والتي تجاهلت بكائي وصريخي وسكبت الماء البارد كبروده قلبها فوق رأسي هي نفسها التي كانت تبكي بحرقة ونحيب عند وداع ابي.

ولكن النسخة صاحبة الخمس سنوات والتي مازالت تعيش بداخلي تجلس بمفردها على احد الكراسي الخشبية في النادي المهجور تتأمل ببلاهة مخلوطة بحزن غروب الشمس وتنتظر النادل ليحضر مثلجاتها المفضلة لتذهب بعدها لمنزل جدها وتطرق الباب ليستقبلها مهللا وتجري نحو غرفه جدتها وترتمي في حضنها.... ولكن لا

جدوى من ذلك الان فالحضن والغناء رحلا مع اصحابه الى الابد المظلم.

ربما كانت ذكريات عادية لمن يسمعها او يقرأها وربما تسخر/ي مني الان ومن سذاجتي ولكنها بقيت متشبثة بذاكرتي وتثير استغراب من حولي بتذكرها بكل احداثها وتفاصيلها وكلما استعدتها بكيت بدمعة واحدة فقط مختصرة حارقة، لازلت لا أقوى على مواجهة نفسي وانا انظر في المرآة واتسأل.. لماذا؟ .

رائحة الجحيم

جدة

الجمعة ٤ أكتوبر ١٩٩٦

ركضت صفية مذعورة، تطوف ارجاء العمارة، مرتديه فستانها القطني القصير بني اللون بنقوشه السريالية، مظهرا تفاصيل جسدها الريان، كانت تدق بيديها البيضاء الممتلئة على ابواب الشقق المجاورة لشقتها؛ طلبا للنجدة وعندما لم تكن تأتيها استجابة من اي شقة، ويرفض الجيران فتح ابوابهم لها، كانت تترك الطابق وتهرول الى شقق الطوابق السفلية، ولكن بلا أي طائل.

كانت العمارة ماتزال حديثة العهد، وطلائها الجديد تقتحم رائحته اللاذعة الانوف ، ممراتها الطويلة سوداء مظلمة، ولم يهتم احد بالسؤال عن السبب في عدم وجود اضاءه كافيه ، كما انها هادئة على الدوام، ولايعرف الجار اسم جاره ،و لم تكن نصف الشقق قد سكنت بعد، والنصف

الاخر اما خرج اصحابها للتنزه والتسوق بمناسبة نهاية الاسبوع، ومن بقي في شقته ظن انها مخبولة بعدما راقبوا تحركاتها العشوائية من خلال العين السحرية، وفضلوا عدم التدخل في مشاكل الاخرين خشيه الوقوع في متاعب لا يعرفون عواقبها؛ فلم يرى احدهم من قبل امرأة منكوشة الشعر تصرخ وتخدش صمت العمارة الهادئة بصوتها الجهوري،و تهرول عارية القدمين بملابس المنزل القصيرة الكاشفة لجسدها ، لقد كان امرا مخيفا للبعض، وقد اعتقدوا ان بها مس شيطاني.

فكر رجل في اواخر السبعينات من عمره فتح الباب ليرى ماذا يحدث؛ بعد سماعه لصوتها الذي شق طريقه لاذنيه ثقيلة السمع، ارتعب قلقا عندما رأها من خلال العين السحرية تطوف فزعا ذهابا وايابا بين الشقق، اقترح مساعدتها واخبر زوجته العجوز ان تبادر في الحديث مع المرأة عندما يفتح الباب، ولكنها رفضت واصرت عليه الا يفكر حتى بالأمر خشيه الوقوع في مصائب هما في غنا عنها بسبب فضوله ، استمع لنصيحتها بعد جدال قصير دار بينهما و تراجع عما كان سيفعله خاصه بعدما خفت حده الصوت وتباعد، نظر من خلال العين السحرية مجددا ووجدها قد رحلت من امام باب الشقة .

دقائق من العذاب و قلة الحيلة شعرت صفية خلالها بالضعف والوهن يكاد يفتك بجسدها؛ لم تكن تمارس الرياضة منذ سنوات طويلة فكان ما تفعله الان مجهودا جبارا بالنسبة لها ضاعفه احساسها بالخوف والوحدة، وقد اجتاح وجهها المتعرق اللون الوردي اثر خوفها و حركتها السريعة كاد قلبها ان يتوقف وكأنه كان يركض معها.

للحظات ظنت انها النهاية ابتلعت ريقها وأخذت نفس عميق وأكملت البحث عن منقذ ، على عتبات السلم كان يقف طفليها، سيف (اربعة سنوات) و ألاء (سبع سنوات) ، يحتضنان الدرابزين خائفان مرتعشان يرتديان ملابس منزل تبدو جديدة ولكنها متسخة ببقايا الطعام ، عاريان القدمين مثل أمهما يراقبان تحركاتها بزعر ممزوج بالتوتر و ينظران لها بشفقه، بدأت الدموع تنهمر من أعينهما ويتأملان الحالة التي اصبحت عليها صفية من أم قويه تأمر وتمنع الى أمرأه لا حول لها ولا قوة تنتظر بأمل واهن المجهول المتخاذل ليساعدها.

كانت اول مره يشعران تجاهها بالشفقة بدلا من الخوف؛ بعدما بدت ضعيفة باكية قليلة الحيلة وتصرخ بلا هدى طلبا للعون، ومع مرور خمس دقائق استحال صوتها مبحوحا يتردد صداه بين جدران العمارة :

ساعدوني يا ناس!

تعمدت صفية الا تنظر الى عيني طفليها وقد امتلئت بالانكسار و الوهن لا تريد اظهار ذلك الجانب المتعلق بالخوف والقلق في شخصيتها امامهما ، وكلما انتقلت من طابق لأخر تبعاها بجزع وترقب فلا زالت بالنسبة لهما رغم حالتها الحالية صاحبة الفانوس السحري للقضاء على اي مشكله.

كلما مرت دقيقة عليها من دون تلقي استجابة لاستغاثتها فقدت رشدها وعقلانيتها اكثر، سقطت في موجه البكاء والنحيب واخذت تلطم على وجنتيها تارة وتعتصر جانب من ثوبها تارة اخرى .

عندما فقدت الامل في الطابق الثاني اخذت تجر قدميها المتسختين متجهة نحو الطابق الاول سمعت خلفها صوت صرير باب شقة يفتح ، استدارت واسرعت نحو الباب، لم يتبين من الواقف خلفه رجلا او امرأة او حتى طفل لم تهتم صفية طالما انها عثرت على النجدة حتى لو بواسطة جني!

صالة مظلمة تفوح منها رائحة بخور طيبة لرائحتها ومزعجة لكثافتها؛ تنحت صفية جانبا محاولة تنفس هواء خالي من الروائح ، بعد لحظات ظهر من وراء الباب رأس أمرأه ترتدي عباءة غامقة وتغطي وجهها بطرحة سوداء شفافة، تبين من صوتها عمرها العشريني ، بصوت مائع يكاد يسمع سألتها :

ليش تدقين الباب كدا؟ ايش في؟

بدا صوت صفية غير مسموعا في البداية فطلبت الشابة منها رفع صوتها كي تفهم ما تقوله فتحاملت على احبالها الصوتية؛ لتظهر مخارج الحروف واضحة، تحدثت سريعا ولم يتضح شيئا من كلامها سوا :

أطلبي المطافي لو سمحتي شقتي بتتحرق وماعنديش تليفون في البيت.

ودفعت طفليها اللذان كانا يلهثان وراء امهما من طابق لأخر :

خلي اولادي عندك لو تكرمتي اخاف حد ياخدهم او يتخنقو من ريحة الشياط.

وقبل ان تسمع رد الشابة بالموافقة او الرفض، توجهت صفيه مسرعة نحو السلالم متجهة لشقتها لمساعده زوجها ، تعجبت الشابة وهي تتأملها تتحرك بشكل غريب الاطوار، اشارت للطفلان كي يدخلا وقد تراخى كم العباءة ليكشف عن ذراعها النحيل الاسمر، سار الطفلان بخطى

بطيئة مترددة نحو الصالة المظلمة في منزل غريب لا يعرفان اصحابه.

اختلاط رائحة البخور مع رائحة القهوة العربي و الهواء البارد الصادر من اجهزة التكييف، كان لها وقع مطمئن في نفس الطفلين، اللذان وقفا في احد اركان الصالة متقاربان من بعضهما ينظران الى الشابة وهي تخبر امرأة عجوز ذات شعر اسود منسدل الى اسفل ظهرها ويدان مملؤتان بالعروق ومغطاه بالحنة وتفوح منها رائحة عود مركز، بعد ان خرجت منذ لحظات من احدى الغرف وبدت شديدة الانفعال سارت بخطوات متثاقله، و سألت عما يجري فأخبرتها الشابة :

في حرمة مجنونة كانت تدق الباب و تصارخ تقول في حريق في شقتها.

سمعت الاء ما قالته الشابة عن امها، كانت اول مره تحتار الاء في امر شخص ما اهو طيب ام شرير، تلك الشابة هي من امتلكت نخوه وانقذت عائلتها بفتحها باب الشقة لهم و طلبها للمطافئ والاسعاف، وكذلك هي من قالت كلام سيء عن والدتها، كانت الاء منذ سن الخامسة ترى الناس لونين تبعا لتصرفاتهم اما لونها المفضل الوردي وهو للأشخاص الذين يساعدون الاخرين ولا يكذبون او لونها غير المحبب فكان الاخضر وهو لمن يضحكون على غيرهم ولا يقولون الحقيقة اما تلك الشابة فقد عجزت الاء عن وضع لون لها كانت تراها مزيج من اللونين، لتعلم بعد سنوات من الحادث انه لا يوجد شخص بلون واحد وردي فقط او خضر فقط انما مزيج يغلب فيه لون على الاخر .

نظرت العجوز للطفلين ويبدو على ملامحها المثقلة بمساحيق التجميل، انزعاج لم تخفيه امامهما وكأنها تشتم رائحة كريهة :

ايش اسم ابوكم؟ ساكنين في اي دور ؟

ظلا متحجرين في مكانهما يحدقان فيها بذهول، أطرافهما ترتعش والمخاط الرقيق يسيل من انف سيف، لم تتلقى اي اجابه منهما اكتفت بنظرة عتاب وجهتها بعينيها المكحلة و بنظرة حادة كالصقر للشابة التي فهمت سر تلك النظرة، تبعتها بعدها نحو الغرفة بخطى بطيئة لا مبالية بعد ان طلبت من الخادمة المحدقة للطفلين ببلاهة ممزوجة بالشفقة ان تحضر لهما عصير برتقال و وجبة خفيفة .

مرت ربع ساعة بقي الطفلان وحيدان في الصالة بعد ان كفا عن البكاء وشعرت قدميهما بملمس و نعومة الموكيت التركي البارد ذو الالوان الزاهية.

اخذت الطفلة تتأمل محتويات الصالة وغرفة المعيشة، لم تتبين لها كل تفاصيل الاثاث فالإضاءة لم تكن كافيه سوى لرؤية ما اظهرته خيوط اشعة الشمس القادمة من خلف الستائر الذهبية لتكشف عن لمعان الحوائط التي علق على كل واحدة منها لوحه لمنظر طبيعي او اية قرآنية خطت حروفها باللون الذهبي ، وأمام الستائر أريكتان

متقاربتان بألوان غامقة وتطريز متقن الصنع ، تذكرت الاء حال الشقة التي تعيش فيها مع اسرتها الصغيرة واحدى غرفها المخصصة للحقائب و الملابس القديمة والبومات الصور تحترق الان وابيها يصارع لإطفائها.

لم تكن شقه ممتلئة بالأثاث كتلك التي تقف فيها الان محتوياتها كانت عبارة عن سرير كبير مستعمل لوالداها في غرفة نومهما مع تلفاز صغير يعطل اكثر مما يعمل و وغرفه اخرى لا يوجد بها سوى سرير لفرد واحد تنام عليه هي وأخيها الصغير، أما غرفه المعيشة فيكسوها موكيت بلون احمر غامق مهترئ من احد جوانبه وتلطخه البقع بأحجامها المختلفة لأسباب متعددة كوب حليب سقط بالخطأ من يدها، تبول اخيها الذي لم يتعلم بعد ان الحمام هو المكان المخصص لقضاء الحاجه.

كانت اول مرة تشاهد فيها اثاث بهذا الترتيب والنظافة والتناسق ظنت ان كل البيوت تشبه شقتهم، كل شيء يبدو ثمين وفخم يعتقد من يراه انه تم شرائه حديثا من المعرض ولكن رغم ذلك يبدو كئيبا وكأنه انعكاس لأرواح

سكان الشقة، شعرت بالوحشة كلما مر الوقت و لا تعلم ماذا حدث لوالديها كلما اراد سيف التحرك او الجلوس كانت تطلب منه الوقوف مكانه عاقلا الى ان تأخذهم والدتهم من هذا المكان.

دقائق ثقيلة مرت ببطئ كانت الحركة عصر يوم الجمعة في حي الصفا خاملة عكس عصر اي يوم اخر من ايام الاسبوع فلا تكاد ترى سيارة او شخص يعبر الطريق الا كل عشر دقائق او ربع ساعة و لا تسمع اصوات الابواق المزعجة وصياح المارة في الشارع كباقي ايام الاسبوع او الجمعة بعد المغرب، عصر يوم الجمعة في هذا الحي هادئ بشكل يثير الشك وكأن سكان الحي اتفقوا بشكل غير معلن على عدم احداث ضوضاء في ذلك الوقت فقط.

لكن اصوات سرينه سيارتي المطافي و الاسعاف قطعتا البروتوكول المقدس للحي، وبدأ الناس يظهرون من خلف النوافذ ذات الاسوار الحديدية واصحاب المحال تركوا اشغالهم وخرجوا ينظرون ويتسألون فيما بينهم اي بنايه في الحي قد احترقت.

في هذا الوقت، كان ايمن الذي اشتعل الحريق في غرفه المخزن بشقته منذ دقائق مضت ولايعرف السبب، يصارع من اجل اخماد النيران الجامحة دون فائدة فكلما اطفئ شرارة في الزاوية اشتعلت اخرى بشكل يفوق سابقتها، وقد ملئت رائحة الشياط رئتيه، اخذ يكح ويسعل مطولا.

حاولت صفية مساعدته في اطفاء الحريق عندما عادت الى الشقة بعد طلب النجدة من جارتها ولكنه نهرها وطلب منها الخروج من الشقة واصطحاب الطفلين خارج العمارة وتنتظره هناك انصاعت له مسرعة بعد ان خطفت العباءة والطرحة من وراء باب غرفتها وحملت حقيبة يدها وحقيبة اخرى صغيرة احتوت على اوراق رسمية وجوازات سفرهم وبعض النقود المدخرة لأوقات الازمات، ارتدت شبشب الحمام وخرجت مسرعة نحو شقة الشابة لإخذ الاء و سيف والخروج من المبنى .

اكتسـت السـماء بلون داكن و تجمعت غيوم بلون الصدأ فوق العمارة.

اقتحم رجال الاطفاء على عجل المبنى الذي اكتسى مدخله باللون الرمادي الغامق وكتب على بوابته من الاعلى باللون الابيض (ما شاء الله.. تبارك الله)، في هذا الوقت كان قد دب الذعر في نفوس سكان العمارة وترك اغلبهم شقهم مسرعين، بعد ان وصلت لأنوفهم قليلا من رائحة الشياط وافزعتهم الحركة غير الطبيعية في المبنى؛ فخرج الجميع خوفا من امتداد الحريق الذي لم يعرفوا مصدره بعد وفي اي شقة قد اشتعل، وقفوا عند الساحة الفارغة امام مدخل العمارة مترقبين ما سيحدث وقد اجتمع سكان كل شقة في زاوية على مسافه متقاربه من بعضهم مذهولين مما يحدث تهامسوا فيما بينهم من اي شقة قد جاء الحريق وحدثت كل هذه الضوضاء.

كانت عيونهم تتنقل بتساؤل واستغراب من حين الى اخر و تحدق في صفيه هي نفس المرأة التي شاهدوها تجري امام شقهم قبل قليل والتي تقف الان محتضنه طفليها وتتمتم الادعية والآيات القرآنية، تأمل بعضهم الاسرة الصغيرة بعين الشفقة لما حدث لهم ولمظهرهم

المزري والبعض الاخر شعر بالخزي لعدم إغاثته للمرأة المسكينة واولادها ومن ضمنهم الرجل العجوز الذي كان على وشك مساعدة صفية و معه زوجته التي لامها على ما قالته في ذلك الوقت، اقتربا من الام وطفليها وعرضا عليها تقديم اي دعم نظرت لهما صفية التي طال انتظارها قدوم زوجها بعين من التأنيب والعتاب وقد عاد صوتها لطبيعته وبدت شديدة الانفعال وأقرب الى الغضب :

لا شكرا

كانت تعلم من صوتهما انهما من الجيران الذين رفضوا تقديم يد المساعدة لها عندما طلبت ان يفتحوا لها باب شقتهم وظلا يتجادلان بدلا من انقاذها ، عزت خوفهما لكبر السن دوما اعتقدت انه كلما كبر الانسان في العمر زادت مخاوفه وشكوكه تجاه الاخرين .

قبل دقائق من الحريق

كل شيء كان طبيعي واعتيادي و قد اقترب موعد اعداد الغداء ولكن صفية كانت متعبه وراقده على السرير تشتكي من الآلام جسدها الذي انهكه العمل في المدرسة طوال الأسبوع، لذلك ولإنقاذ اليوم الذي يستحيل ان يمر من دون وجبه غذاء طازجة تطوع ايمن بعد ان عاد من صلاة الجمعة تحضير صنف الطعام الوحيد الذي يتقنه.. معكرونة حمراء.

عندما جلسوا امام طاوله الطعام البلاستيكية، كانت الاء تتأمل المعكرونة في طبقها وتقلب حباتها بالمعلقة في تململ، لم تحظى الوجبة على رضاها فقد اعتادت يوم الجمعة ان تحضر امها اصناف متعددة وشهية كالدجاج المحمر مع الارز بالشعرية او سمك مقلي مع طحينة وأرز أو اي وجبة تتميز عن باقي وجبات الاسبوع التي تنحصر في المعكرونة الحمراء أو الكشري الاصفر ، لم تعلن

شكواها امام والدها الذي تحمس لإعداد الطعام كي لا تغضبه و تناولت ملعقتين من المعكرونة على امتعاض، بعد لحظات رائقة لا يشوبها ما يعكر الصفو نظرت صفية لأيمن :

في ريحة شياط!

تسابق افراد الاسرة نحو الغرفة المجاورة التي حولها ايمن لمخزن يضم حقائب سفرهم وملابسهم القديمة وكل البومات الصور منذ زواجه بصفية وحتى اول و اخر نزهتين قاموا بها في حديقة الانعام الجميلة وملاهي الفردوس فمنذ قدوم العائلة لمدينة جدة منذ سنتين لم يحظى الطفلين بأي نشاط ترفيهي عدا مجلة صغيرة لميكي وبطوط ومشاهدة قليلا من افلام الكرتون التي تعرضها القناة الاولى في الفترة الصباحية .

فتحوا الباب ليجدو امامهم النيران تتمايل وكأنها تدعوهم في شماته وتحدي الى حفلة راقصه في الجحيم، صرخت صفيه وارادت تلقائيا دخول الغرفة لتنقذ اي غرض قبل ان يحترق، شدها ايمن بعيدا عن باب الغرفة :

خرجي العيال من الشقة بسرعة واطلبي المطافي من اقرب تليفون تلاقيه.

اخذ السطل الكبير الموضوع للطوارئ في حاله انقطاع الماء وبدأ يواجه بمفرده ألسنة اللهب التي اشتعلت بشراسة دون سابق انذار .

ظل السكان يترقبون منتظرين العودة الى شققهم بعد ان طال انتظارهم اكثر من ربع ساعة، لم يهدأ بال صفيه التي اخذ القلق يشتعل في قلبها الا عندما شاهدت ايمن يخرج من العمارة على قدماه بمساعده احد رجال الاطفاء وكان في حاله اشبه بانفصال عن العالم المحيط، به وكأنه يمشي في سرداب مظلم بخطي متثاقله بحثا عن مخرج لوح لأسرته بابتسامه صغيرة على زاويتي فمه و لم يمنع الهباب الذي لطخ وجهه بعشوائية من ظهور الغمازة على خده الأيسر فرغم اقترابه من سن الاربعين الا ان ملامحه لازالت طفوليه بشوشة، كان قد احترق قليلا من الجزء

السفلي من قماش جلبابه الرمادي ، تطلعت اليه العيون و علت اصوات البعض فرحا تعبيرا عن الارتياح، صاح الطفلان مهللين و اسرعوا نحوه وعانقوه ومعهم صفية التي حمدت الله على خروجه سالما ، نظر الى السماء واخذ نفس عميق من الهواء الخالي من رائحة الشياط التي قد ملئت رئتيه .

طمئنهم رجل الاطفاء بأن شقتهم امنه الان وتمت السيطرة على الحريق، الذي لم يعرف سبب نشوبه، و اقتصار الخسائر على محتويات الغرفة ولم يمتد اثر الحريق الى خارج الغرفة سوى لطخات رماديه عشوائية على جدران الصالة ، وحذرهم من اجل سلامة صحتهم من المبيت في الشقة خلال اليومان القادمان لان الرائحة ستشكل خطرا على صحتهم في حال فضلوا البقاء فيها مباشرة، ارتعبت صفية التي لم تكن تعلم اين ستذهب هي واسرتها الايام القادمة وليس لديهم مكان اخر يذهبون اليه فطمئنها ايمن انه بإمكانهم المبيت في شقه صديقه الذي سافر هو واسرته لقضاء شهر عطلة في مصر وترك مفتاح شقته مع أيمن في حاله حدوث امر طارئ ، تطوعت صفية الصعود لشقتهم سريعا لإحضار ما يلزمهم

من اغراض مهمه للمبيت هناك حملت في كيس كبير الاغراض التي طلبت منها محفظة زوجها وجلباب نظيف وصندل سيف وكوتشي الاء وبعض المتعلقات الخاصة بها ، تجنبت عند دخولها الشقة النظر الى الغرفة، وكأنها غير موجودة سارت بحذر وبخطوات مسرعة، كانت تتمتم بصوت مسموع المعوذات وايه الكرسي، وقبل مغادرتها فتحت شبابيك المنزل للتهوئه .

مع انزلاق الشمس نحو المغيب، دخلت الاسرة شقه صديق ايمن، وصوت الاذان قد ارتفع، كان كلا من صفية وايمن مشوشان يتحركان كالروبوتات لم يعرفان حتى ان كان الاذان الذي يسمعانه الان لصلاة المغرب او العشاء ، تمكن النوم من سيف عندما لامست رأسه الوسادة المخملية الموضوعة على الاريكة، وعلى عكسه الاء التي رفضت الاستلقاء بجانبه رغم ان جسدها كان على وشك فقدان توازنه؛ من التعب لكنها ظلت جالسه على احد كراسي السفرة تحدق في محتويات الشقة كما فعلت مع شقة جارتهم، و رغم صغر مساحة شقة صديق ايمن الا انها مرتبه ومليئة بالأثاث غير المتناسق مما جعلها تبدو مزدحمة بعض الشيء ومثيرة للانزعاج، اما صفية فبحثت

عن اول حمام لتزيل رائحة الشياط و اثار العرق و البول التي علقت بملابسها بعد ان سقطت منها بضع قطرات من البول مرتين وقت الحادث مره عندما شاهدت السنة اللهب والمرة الاخرى بينما كانت تبحث عن النجدة، ، ارتمى ايمن بجانب الاء على احد كراسي السفرة يربت على رأسها محاولا نسيان الكابوس الذي واجهه اليوم.

دخل المطبخ، وخلع جلبابه نصف المحترق، والقاه في القمامة وارتدى الجلباب النظيف الذي احضرته زوجته، واخذ محفظته وخرج من المنزل دون اعلام احد عن وجهته ، استغربت صفية عندما خرجت من الحمام سبب خروج ايمن المفاجئ ، جلست على الاريكة بجوار سيف و حاولت التحدث مع الاء التي حدقت في الازهار البلاستيكية الموضوعة على الطاولة، واقناعها بالنوم بجوار اخيها ولكنها رفضت ارعبها لون الاريكة الاسود ذكرها لسبب غير معلوم بالحريق الذي نشب لم يكن الصمت والحزن من طبيعة الاء ، حتى عندما حاولت امها الهاها

بتشغيل التلفاز لم تنظر له ولو لمره واحده واكتفت بالتأمل الازهار وكأنها منومه مغناطيسيا.

سار في الشارع المزدحم بالمارة والسيارات لا يعلم اين يذهب فقد احس بأن الدنيا تضيق به حتى تكاد تطبق عليه حاول نسيان الدقائق التي عاشاها وهو يكافح النيران مر من امام مطعم ملحق به آلة كبيرة بداخلها صفوف من الدجاج المشوي المتراصة على اسياخ وتدور في تناغم، تذكر وهو يتأملها ما كان سيؤول له جلده لو بقي يصارع النار بمفردة يسكب عليها جرعات كثيفة من الماء فيظن انه تمكن منها وهزمها لتستعد عافيتها وتثور نحوه فيتراجع محتميا بسطل الماء.

ظن لوهله ان اللهب سيذيب لحمه ويحوله الى عظام لكنه عجز عن تناسي الامر ولو بصفه مؤقته تخنقه رائحة الشياط التي أبت ترك أنفه وكأنه توقف عن استنشاق اي رائحه سواها.

لا يعلم اين يذهب وسط هذه الضوضاء، كان يريد ان يلهي عقله بأي امر وبائت محاولاته بالفشل بعدما راوده التفكير فيما حدث وبدأ يعاتب نفسه، لأنه المسؤول عن تلك الغرفة وكان دوما يحذر اطفاله من دخولها دون اذن منه حتى صفيه لم تكن تقترب منها واذا ارادت وضع حقيبة او صندوق قديم فيها كانت تعطيه له ليتولى هو وضعه في المكان المناسب بالغرفة، مر من امام محل لبيع التلفزيونات فوجد شاشاتها تعرض مشهد واحد في نفس الوقت لغابة تحترق اشجارها الكثيفة بضراوة ، ابعد ناظريه و مضى بعيدا عن المحل ، راح يفكر في الاحتمالات السيئة التي ستحدث لولا ستر الله كيف سمح لنفسه كرب أسرة بتعريض حياه اسرته للخطر ماذا لو حدث له او لاحد اطفاله او زوجته مكروه او حروق لا تزول اثرها ويصبح وجهه مثل الرجل المتسول ذو الوجه نصف المحترق الذي كان ايمن يخاف الخروج للشارع اذا وجده واقف امام المنزل، اراد البكاء على صدر أمه كما بكي لحظة الوداع قبل سفره، استجمع مشاعره وتوقف عن جلد ذاته، عندما وجد نفسه واقفا امام مجمع لبيع الملابس الجاهزة للجنسين من كافه الاعمار.

بعد ساعة ونصف جاء ايمن، ومعه العديد من الاكياس البلاستيكية السميكة عليها الوان ورسومات لأطفال مبتسمين وكيس اخر طبع عليه وجه دجاجة تغمز مرتديه قبعة حمراء، كان بداخله طبقين من البروست والبطاطس تفوح منهما رائحه شهية لتغطي بشكل مؤقت على رائحة الشياط التي تشبعت بها انوف الاسرة هذا اليوم ، نظرت صفية بفرح واستغراب الى ايمن والاكياس التي جاء بها، القاها على السفرة واخذ ينادي على طفليه وقت غابت رنة صوته الأصلية بفعل دخان الحريق :

يا الاء..... يا سيف تعالوا شوفو بابا جابلكو ايه

اسرعت الاء نحوه واحتضنته حتى قبل ان ترى ما في الاكياس وقد دخل انفها رائحة الدجاج المقلي الشهية، نظرت لباقي الاكياس كان قد احضر لكل فرد قطعة ملابس صفية احضر لها جلباب وردي واسع بنقوش مربعة والاء فستان ابيض(بفيونكات) و سيف (تيشرت) مخطط ابيض واحمر وعليه صورة بارزة لأرنب ابيض ولم يحضر لنفسه شيء واكتفى برؤيه الابتسامة تعود لوجوه اسرته بعد يوم شاق.

كانت اول مره تتناول فيها الاء البروست لطالما رفضت امها ادخال المأكولات السريعة او المشروبات الغازية الى اجساد ابنائها ولكن هذا اليوم كان استثناء في كل شيء كما قال ايمن.

على قدر ما شعرت الاء بالسعادة وهي تلتهم قطع الدجاج المقلي المقرمش ومعها البطاطس المقلية وتغطسها في صلصة الثوم الحامي المصاحبة له الا انها تمنت ان يعود الزمن الى الوراء و لا يحدث كل ذلك، وقتها ستكتفي بالوجبة التي كرهتها.. المعكرونة الحمراء على شكل اصداف نظرت للساعه المعلقة على الحائط كانت تشير للعاشرة وسبع دقائق تمنت لو تراجعت العقارب للخلف 12 ساعة ارادت فقط ان يعود الزمن الى الوراء و لا يحدث كل هذا ، بعد ان اكلت تحممت وارتدت الفستان ، فرحه الملابس الجديدة انستها ولو بشكل مؤقت ما حدث واخذت تدور وهي واقفة وتمد زراعها في الهواء بسعادة.

بعد يومان عادوا الى الشقة بعد استرجاعهم عافيتهم، بدا المكان كئيبا وجدرانه السكرية تعكرت اجزاء منه بلون رمادي غامق مائل الى الاسود ، لم تختفي رائحة الشياط كليا مما اعاد لهم ذكريات اليوم الحزين الذي عاشوه، ومثلما وقفوا من يومان مذعورين امام باب الغرفة وهي تحترق وتظهر على بؤبؤ اعينهم انعكاسات تراقص النيران ، وقفوا هذا المرة يتأملون ما آل اليه حالها وقد استحالت الى ليل اسود غاب قمره ونجومه.

احتضن سيف عباءة امه خائفا مما يراه امامه ، بينما سقطت دمعه من عين الاء حزنا على صورها و ذكرياتها وملابسها التي احترقت، اما ايمن وصفية فتظاهرا

بالتماسك امام الطفلين وقد اشتعلت في قلبيهما نارا تكاد تفوق التي اشتعلت منذ يومان

دخل ايمن الغرفة لأخذ جوله استطلاعية وازاله الاشياء المحترقة ووعد صفية امام اطفاله بطلاء الجدران المتضررة في اقرب وقت، قلب محتوياتها يمينا ويسارا محاولا الخروج ومعه على الاقل غرض واحد لم تلهمه النيران دون جدوى، كل الذكريات تفحمت وزالت معالمها الصور الاولى لطفليه منذ ولادتهما و حتى الان وملابسهما القديمة التي احتفظ بها للذكرى او للطوارئ في حاله قرر هو و صفيه اضافة طفل جديد للأسرة، لملم كل ما في الغرفة حملها خارج الشقة واضعا اياها في الساحة الفارغة امام العمارة .

همت صفية بتنظيف ما يمكن تنظيفه من اواني لتتخلص من الرائحة الملعونة او ربما لتضع همها في (شغل البيت) ليس الا، طلبت من الاء مساعدتها بإحضار اطباق

المعكرونة من على الطاولة الطعام الى المطبخ، بينما دخلت تنظف جميع الاطباق حتى تلك النظيفة الموضوعة في (المطبقية) قد غسلتها مرتين، واخذت تزيل فتات المعكرونة المتناثر في باطن قدر الطبخ الذي تكاسل ايمن عن تنظيفه بعد تحضير الطعام، كشطت القدر بطرف الملعقة لتزيل البقايا العالقة في جوانبه وقد اجتاحها شعور بالغيظ والحسرة كلما تذكرت ما حدث ، لم تعلم بالتحديد ما يمزق قلبها أهو الوقوع في ضائقة في بلاد الغربة بعيدا عن الاهل والاصدقاء، ام هرولتها الجنونية في ارجاء العمارة تستعطف الغرباء لمساعدتها ام نظرات الاحتقار التي استشعرتها من بعض الجيران عندما كانت واقفه مع اطفالها امام باب العمارة، أم نظرة سيف والاء لها على السلم وهي مذعورة و لا تقدر على طمأنتهم أم كل تلك الاشياء مجتمعة وكأنها رميت عارية في وسط طريق مهجور ، اخذت في البكاء بدون صوت مطبقه شفتيها بإحكام كي لا يسمعها احد.

ما ان قربت الاء انفها من طبق المعكرونة، التي بقيت على حالها حتى اشتمت رائحة الشياط القوية تفوح منها ، وبعد مرور عشرون عاما على الحادث وعودتها لمصر لازالت الاء تذكر ذلك اليوم بتفاصيله و روائحه المتناقضة، شياط الغرفة المحترقة وبخور جارتهم، وعود العجوز اللئيمة، و الفستان الجديد،، والدجاج المقلي والثومية، وخوف امها، و قلة حيله ابوها، كل تلك الروائح مجتمعة شكلت جحيما لا يمكن نسيانه خلقت بداخلها وحشة لا تمحى مع مرور الوقت.

ولازال عصر اي يوم جمعة يسبب لها ذعرا يجعلها تطوف ارجاء المنزل خوفا من نشوب اي حريق او حدوث ماس كهربائي، كانت عاده استغربها زوجها واطفالها الذين لم تذكر امامهم اي شيء عن ذلك اليوم، أما أيمن وصفية فوضعوا الحادث في خزانة الذكريات المنسية وتناسوه كحال ذكريات كثيرة اسوء مرت عليهما وتجاوزاها، لم يفهم احساس الاء سوى شقيقها الصغير الذي لا يذكر شيئا من ذلك اليوم سوى صورة الغرفة المتفحمة التي مازالت معلقه على جدار ذاكرته ، والتي ظل يخاف المرور من

امامها حتى عندما نظفت و دهنت وبدت احسن من حالتها قبل الحريق .

كراتين د/يسري سليمان

الاربعاء ٢٢ اغسطس ٢٠١٢

اوشكت الشمس على المغيب، وأوشك هو الاخر على الانتهاء مما بدأ القيام به بسرعة وهمة خارقة لم يعتد على التحلي بها منذ زمن طويل، لم يتوقف هاتفه الجوال عن الرنين منذ ما يقارب الربع ساعة، جميع المكالمات اتته من جهة اتصال واحدة مسجلة باسم (علي/ مندوب شحن).

منذ ظهر اليوم أخذ يجمع كل ما تقع عليه يداه العملاقتين المعروقتين، رغم انه جمع اغراض كثيرة في زمن قياسي بالنسبة الى كثرة عددها، الا انه شعر بتثاقل الدقائق التي ارهقت كاهله وكأن مئة عام قد مرت وليست بضع ساعات فقط، عندما شعر بالإرهاق وسرعة التنفس يجتاحان جسده الخمسيني المنهك من مرضي الضغط و السكر، وبدأ العرق يلمع على جبهته العريضة جلس على طرف السرير تلمسا لقليلا من الراحة الا انه ما لبث بالجلوس حتى نهض فجأة مفزوعا وكأن السرير اجتاحه

تيار كهربائي اصاب عجيزته، لقد تذكر الوعد الذي قطعه على نفسه قبل ان يهم بتجميع متعلقاته ظهر هذا اليوم :

لا ارغب في العيش معهم يوم اخر.. سأعود لبلدي.

صوت اهتزاز الهاتف الجوال واصطدامه بالمنضدة الزجاجية المكسوة بغبار لزج لم يهتم احد بإزالته منذ سنوات ايقظه من افكاره، ليلتقط هاتفه بعد ان كف عن الحركة فجأة، على الشاشة الخافتة كتب (33 مكالمة لم يرد عليها) تمتم في غيظ :

يادي النيلة!

ضغط زر معاودة الاتصال، فتح فمه وكأنه يقوم بتمارين صوتية محاولا جلب طبقة صوت هادئة تغطي على غضبه وثورته، وتضفي اجواء اجتماعية مع من يتحدث معه على الهاتف :

يا باشا معلش كنت في البقالة بجانب البيت ونسيت اخذ الموبايل معي على نفس الموعد بإذن الله

صمت قليلا ليسمع ما يقوله الطرف الاخر :

نعم صحيح كل الكراتين كتبت عليها بقلم ماركر كحلي د /يسري سليمان

اكمل :

انا في انتظارك.. سلام اغلق الخط وعاد لمهمته كجندي همام وكأن المكالمة شحنت طاقته من جديد وكلما تحركت عقارب الساعة زادت قناعته بالرحيل من المكان .

انه مثال حي لسوء الحظ وسلسلة من الاخفاقات المتوالية، قبل هذا اليوم بستة اشهر كانت حياته تسير بنمطها المعتاد لا جديد يتخللها كالخمسة وعشرون عام التي سبقتها ، وهو لايزال يعمل في نفس الوظيفة في نفس المكان منذ عشرون عاما، طبيب في قسم الطوارئ في الفترة المسائية في مستشفى قديمة و متواضعة

في حي الشاطئ بجدة استقر في هذه المستشفى بعد التنقل بين عيادات ومستوصفات قرى ومحافظات عده.

حتى المواقف والمشاكل التي رأها غير طبيعية في بداية حدوثها كمشاجراته اليومية مع زوجته أمل وابنه عصام ، و سيارته التي تعمل يومين وتتعطل لبقيه الاسبوع ويستهلك تصليحها نصف راتبه، ومناوشاته الباردة مع جاره الاصلع على من الاحق بركن سيارته امام باب العمارة مباشرا؛ تطبعت مع مرور الوقت واستحالت عادية وباتت روتينا مقدسا حتى انه اذا مر عليه يوم ولم تحدث فيه احد تلك الاشياء شعر بالقلق وكأن هناك امر خاطئ او خلل اصاب قلب يومه.

كذلك مشاجراته المتكررة مع مدير المستشفى وبعض الاطباء، والتي تصل احيانا لتبادل السب واللعنات فيما بينهم، وعاده ما ينتهي الشجار بشخره يطلقها يسري امام المدير و السكرتيرة و باقي الحضور من اطباء ومحاسبين ومرضى؛ ليشعر بزهو الانتصار وكأنه اطلق امامهم قنبلة مسيلة للدموع لا يستطيعون بعدها الصمود امامه، الا انه استطاع رغم ذلك الاحتفاظ بوظيفته لسنوات

طويله تعجب هو من هذا الامر قبل الاخرين، عزى ذلك في لحظات الفخر بالنفس؛ لمهارته الطبية التي تفوق جميع الأخصائيين والاستشاريين في المستشفى او (الكفتجيه) كما يحب ان يصفهم.

وكأن الحياة اشارت له بأصبعها الأوسط ، و ادرك في لحظه سوداوية ان عمره تجاوز الثالثة والخمسين، ولم يحقق اي هدف كان يصبو اليه ، شعر بأن القدر يعاقبه على تنازلاته المتكررة حتى الايام السوداء على حد قوله التي اعتاد عليها سأمت منه واغلقت الابواب في وجهه عندما قررت ادارة المستشفى فجأة في احد الايام إنهاء خدمه عدد ليس بالقليل من العاملين الاجانب في مختلف القطاعات واستبدالهم بأبناء الوطن تبعا لقوانين العمل الجديدة.

كان بإمكانه البحث عن مكان جديد ولكنه شعر بطاقته وقد اوشكت على النفاذ ولن يتحمل البدء من الصفر في مكان مختلف مع اشخاص جدد بمشاكل مجهولة تتساقط عليه من حيث لا يحتسب خاصه بعد ان اصبح رؤيه الثوب الابيض والغترة والعباءة السوداء كالليل الطويل تثير غيظه

اكثر من اي وقت مضى ، وصار يؤمن بأنه مغناطيس للمصائب التي تولد من العدم.

باتت كبرياؤه تمنعه من الاستمرار في السير في تلك الحلقة الى ما لانهاية، كما ان وصول ابنه لسن الثامنة عشر اشعره بأن لا حاجه لخدماته العائلية بعد الان وان كان متهربا منها في الاساس.

ربما اغضبته الرجولة المبكرة التي استشعرها في ولده وتحوله للرجل الخارق في حياة أمل بمجموعة من التصرفات كوقوفه في صفها دوما عندما يبدأ يسري في توبيخها واطلاق الكلام الجارح عليها، أ أو احضار اغراض البقالة الناقصة، أو تدليك قدماها المنتفختين، ما زاد الطين بله عندما علم بأمر السيارة المستعملة التي اشترتها له أمه و اصبح امر توصليها الى المستوصف الذي تعمل فيه من مهام ابنها، ولن يتمكن هو بعد الان من فرض شروطه عليها او التأفف اثناء توصيلها او حتى مساومتها و اذلالها، علم بعد كل تلك الامور انها انتصرت عليه واجلسته على دكه الاحتياط عن طريق ابنها المخلص لها، والذي بات

يسري يطلق عليه كلما رأه يفعل احد تلك الامور لقب (ابن امك) ويعايره بكلية التجارة و بالجامعة منخفضة المستوى الاكاديمي وغير معترف بشهادتها في مصر و التي دخلها بنظام التعليم عن بعد بمصاريف خمسة الاف ريال في الفصل الدراسي الواحد ، كان يردد على مسامعه كلما تذكر على غفله منه امر الجامعة التي التحق بها :

- ابن الدكتور بيطلع الدكتور او على الاقل مهندس او اي حاجه عليها القيمة لكن انت داخل كلية تجارة في جامعة اي كلام هتطلع ايه يعني بعد التخرج محاسب في بقالة يا فرحتي يا خويا.

-على الاقل التاجر او المحاسب يأخذ راتب اعلى من طبيب عام في مستشفى من الدرجة الثالثة و لا يمتلك سمعه سيئة مثلك

كان هذا رد عصام الذي لم يبح به وفضل ترديده في عقله والصمت امام والده.

لم يكن صبر عصام على كلام والده الاشبه بسكين تخترق وسط القلب بوحشية بدافع الخوف منه او الاحترام ،لم يكن رجلا مخيفا حتى في اشد نوبات غضبه، اما عن الاحترام فقد تلاشت اخر قطره منه كان يحملها له كلما شاهد تصرفاته وردود افعاله، كان خوفه على والده يمنعه من مصارحته بما يدور في رأسه كان يعلم ان ارتفاع الضغط قد يقضي عليه لن يتحمل فكره قتل ابيه من اجل الانتصار لكرامته لذلك فضل ترك ردوده المفحمة والصريحة و اختيار الصمت امام شطحات والده المتكررة، وكلما هم بتوبيخه اغلق عيناه متذكرا اللحظات اللطيفة التي عاشاها سويا عندما كان طفلا يمطره ابيه بالألعاب و يصطحبه للذهاب الى مدينة الملاهي من دون علم والدته متمنيا عوده تلك الايام لتحل مكان الكابوس الذي يعيشه الان.

اراد العودة للحظة التي كان يشعر فيها بالشفقة على والده كلما رأه غاضبا وحانقا على الحياه، كان يراه في ذلك الوقت مظلوما مسكينا مغلوب على امره من امرأة متسلطة وشريرة تتلاعب به وتثير اعصابه كلما رأته سعيدا وتهوى اغضابه، لتمر السنوات و يكبر ليرى صورة

معكوسة، مغايرة لتلك التي نشأ عليها، صورة من دون فلاتر او تعديل، ويعلم ان لولا أمه لغرقت سفينتهم حتى قبل انطلاقها، ادرك هذا الامر عندما سمعها بالصدفة في احدى المشاجرات مع والده خلف باب غرفتهم المغلق، صرخت بالحقيقة بعدما طفح بها الكيل ، علم ان والدته هي من تدفع ايجار المنزل و مصاريف تعليمه من الابتدائية وحتى الان و لم تخبره او تلمح له حتى بهذه الامور كي لا تهتز ثقته بأبيه او يتصرف مثله ويصبح مثله الاعلى في التملص من المسؤوليات.

احس بشفقه تجاهها و انه ظلمها، كانت في نظره كالنبي الذي عانى الامرين من قومه ولكنه لم يكرههم وصبر عليهم، زاد دعمه ومساندته لها بعدما عاد من مصر لقضاء الاجازة الصيفية وزيارة اقاربه في مسقط رأسه و رأى الحياة التي كانا عليها قبل الزواج وادرك ان ابيه كذب عليه عندما اخبره ذات مره بتواضعه وتنازله عندما تزوج هو ابن العائلة الميسورة ماديا من فتاة اقل منه في المكانة الاجتماعية والحضارية، فعندما دخل المنزل الذي عاشت فيه والدته وكذلك المنزل الخاص بوالده قبل الزواج و الذي لم يختلف كثيرا عن منزل جده لامه الذي لم يكف

يسري عن معايرتها كلما غضب منها ب(بنت بتاع الفول) والحاقها بجملة (خدوهم فقراء يغنيكم ربنا).

كلاهما كانا منزلان يقعان في احياء متواضعة، يسكنها أناس بسطاء ، لربما في اغلب الاوقات شعر عصام ان منزل جده لامه اكثر دفئا ومحبه وتلمس في جده عزة نفس وكبرياء، لم يرى مثيل لها في والده او حتى في اعمامه الثلاثة انصاف المتعلمين الذين شاهد من تعاملهم تصرفات حديثي النعمة لا يرضيهم اي شيء وسوقية تصرفاتهم المشابهة الى حد كبير لتصرفات والده وكأن التعليم والدرجة الجامعية التي لم يكف يسري عن التغني بها امامه وتذكيره دوما بأنه اول شخص في العائلة يدخل الجامعة لم تغير في سلوكه شيئا ولم تحدث ولو فارق طفيف كانت ردود الافعال نفسها عند الغضب وطريقه التلويح بالأيدي في المشاجرات نفسها اخوة طبق الاصل لا شهادة و لا سفر غيرا من سلوكه.

تذكر والده عندما كان يلعن على حد قوله (حظ العوالم) الذي جعل إخوته يمتلكون ثروات مجهولة المصدر لا حصر لها في وقت قصير، ولكنه عزا كل ذلك الى احتيالهم

واساليب المكر التي استخدموها في جمع ثرواتهم حيث اصبح لكل واحد منهم مزرعة دواجن واخرى لتربية العجول و بقالات و التي كلما تذكرها قال بصوت مرتفع امام زوجته وابنه (اغنينا يارب عن المال الحرام) رأى عصام ان التعليم لم يحدث اي فارق ثقافي او اخلاقي بين الاخوة وان تظاهر والده بعكس ذلك خاصه بعدما سأله احد اعمامه عن صحته بعد الحادث الذي تعرض له استغرب عصام من سؤال عمه وعن اي حادث يسأل ، ليعلم ان عمه كان يرسل لوالده مساعدات المالية من وقت لأخر بعد ان بكى يسري لأخيه في الهاتف و اخبره بسوء الاوضاع خارج ارض الوطن وزعم ان عصام تعرض لحادث سيارة وبحاجه ضرورية لإجراء عملية جراحية لقدمه.

تعرى والده كليا امامه وبات مسخا لا يقوى على النظر اليه مجددا، ندم على اللحظات التي صدق فيها انه ضحية و كان يتألم من اجله، ليتغير موقفه بعد عودته من مصر من متعاطف مع ابيه لناقد له و لتصرفاته و يصبح مع مرور الوقت مناصرا لامه حتى اتسعت الفجوة بين عصام وابيه الى ان اصبحا لا يتحدثان معا لأيام واحيانا لشهور . وكلما شعر يسري بابتعاد ولده عنه زاد امتعاضه وحقده على زوجته التي شعر انها من ملئت رأس ابنها بالكره تجاهه.

حتى زوجته التي كانت فيما مضي من اهم اسباب سفره الى السعودية اصبحت الان من اهم اسباب رحيله عنها.

عندما رأها اول مره في الوحدة الصحية التي عمل فيها بعد التخرج، انجذب لبساطتها واحمرار خديها عند الخجل أكثر من اي أمر اخر، ادرك انها ستصبح زوجته لا محال و ستعوضه عن خيبات أمله في حبه الاول، و في الفتيات اللاتي تعرف عليهن ورفضنه لمكانته الاجتماعية والمالية المتواضعة، عندما صارح احد اخوانه بنيته الارتباط بها استغرب من اختياره كان يعلم ذوقه في النساء ومواصفات زوجته المستقبلية التي لم تنطبق و لا واحده منها على أمل فلم تكن تلك الفتاة الاجتماعية المحبة والمهووسة بعقد الصداقات والذهاب للرحلات اسبوعيا ولم تهوى كثيرا الخروج من المنزل الا عند الضرورة فلم تكن كما كان يتمنى فتاة احلامه الشابة الجريئة المنطلقة الغنية ست الحسن التي ستشعره بطعم الحياة بل كانت مفرطه في بساطتها الى حد الملل حتى انها لم تكن مهتمة مثله بمتابعة الأفلام العربي والاستماع للأغاني

الشبابية التي يحفظ كلماتها ويردد مقاطع منها طوال الوقت.

لم يكن تعلقه بها عشوائيا، لقد ادرك بعد تفكير ليس بطويل انها المنشودة، لن تعايره بفقره؛ لأنها اكثر منه فقرا، ولن تتذمر من المستوى التعليمي والثقافي لأقاربه؛ فوالداها أقل شئنا من عائلته، لن تثور عليه في لحظة غضب وتستعين بأحد اقاربها الاشداء ليؤدبه؛ فقد كانت وحيده والديها كورقة شجرة مهملة في مهب للريح انفصلت عن غصنها ليلتقطها هو وتصبح ملكه

- غلبانة و عايزة تعيش

كان رده جاهزا كلما سأله احد اصدقائه المقربين عن سبب اختياره لها، لم يأخذ وقت حتى لاختلاق اسباب كاذبه لارتباطه بها.

الهتها رومانسيته المفتعلة وكأنه يمثل في فيلم سينمائي سطحي، وهداياه المتواضعة التي كان يقدمها

لها عن حقيقة مشاعره لو كلفت نفسها عناء النظر لعيناه ولو لدقيقة واحدة لعلمت انه كاذب اراد الزواج منها كواجب اجتماعي فقط، وليس بسبب الحب كما كان يخبرها، ولكنها لم ترغب ان تستيقظ من غفوتها، ارادت تصديق انها في قصة حب حقيقية من اول نظرة مع رجل يفهمها.

سارت الامور بشكل تقليدي لتتلاشى في عيناها شيئا فشيا الصورة الوردية له بعد اشهر قليلة من الزواج ، لم يكن ذلك الشاب الوديع الرزين المتفهم بل كان يثور على اتفه الاسباب كنسيانها ايقاظه عند موعد عرض احد الافلام على التلفاز او زياراتها المتكررة لأهلها في عطلة نهاية الأسبوع واعطائهم جزء من راتبها لمساعدتهم كما اعتادت قبل الزواج، لم تكن عيوب يسري في ذلك الوقت على حد قولها أمر قاتل فالجميع له سلبيات لسنا ملائكة، ولكن عيبه الحقيقي في نظرها كان انعدام الطموح .

اكتشفت انها تعيش حياة مهترئة، و لا يبالي يسري بتطوير وضعهم المالي؛ فقد كان يعيش اليوم بيومه و لا يهتم لما سيأتي في الغد، مكتفيا بما يأخذه من ابيه

واخوته من نفقات متقطعة لدعم وضعه المادي ، و رغم سمعتها الطيبة بين ابناء الحي ومعرفه اغلب قاطنيه بأنها الطبيبة الوحيدة التي يلجؤون إليها عند الحاجه لتعالجهم بأسعار رمزية و مجانية في بعض الاحيان الا ان زهوها بمكانتها قد تحطم في احد الايام عندما رفض السائق الذي اعتاد توصليها وزوجها الى الوحدة الصحية كل يوم بشاحنته الصغيرة؛ لتوصيل مجموعة من الرجال والنساء القرويين حفاه الاقدام الذين تفوح منهم رائحة اللبن والعرق؛ بعد ان دفعوا له اجرة اسبوع كامل مقابل ركوبهم معه، والطامة الكبرى التي اشعرتها بالإهانة وكأن احدهم رمى عليها دلو مياه متسخة؛ عندما شاهدت احداهن تجلس وبجوارها ماعز صغيرة على نفس المقعد الذي اعتادت الجلوس عليه، شعرت بالحنق والغيظ تجاه ما شاهدته ذلك اليوم وتفضيل السائق توصيل الماعز والقرويين على توصيلها هي التي كانت تعالج زوجته وبناته الصغار، ولم تفلح محاولات يسري طوال ذلك اليوم التخفيف من شعورها بالقهر واقناعها ان ما حدث امر يبعث على الضحك لا الغضب .

حاولت نسيان ما حدث ولكن لم تستطع، ادركت ان التعليم ليس اهم امر في الحياة كما اخبرها والداها، وبلا

مال لا نفع لأي شيء فقط المال هو الحل، المال الوفير الذي لن تحصل عليه من عملها في الوحدة الصحية او العيادة الصغيرة التي يمتلكها يسري او الزيارات المنزلية لأثرياء القرى، الامر بحاجه لكفاح في مكان اخر يستحق عناء التعب، تعاظمت الفكرة في عقلها يوما بعد يوم وتحولت الى امر واجب التنفيذ خاصه بعد قدوم عصام للحياة .

ثار يسري غاضبا عندما علم بقرار أمل السفر الى السعودية قبل مناقشته في الامر، ادرك انها تغيرت، ولم تعد تلك الفتاة الرقيقة الخجولة المغلوبة على امرها، تحولت في نظره الى امرأة تلهث وراء المال المتساقط من الخليج، ولكن كل ما ارادته هي في ذلك الوقت ولم يفهمه يسري؛ هو البحث عن فرص أكثر قيمة في مكان اخر مع أناس جدد، لربما استطاعوا تغيير حياتهم ومصير ولدهم للأفضل ، لم تقنعه حجتها في ان سبب سفرها هو جمع المال لحياة افضل لطفلهم و كلما شاهدت في تصرفاته اعتراض على قرارها اخبرته :

- اذا اكملنا حياتنا هنا فسيدخل نفس المدارس التي دخلناها ويقابل نفس الناس ونفس العقليات

-كفي عن التفكير بسوداوية لن يموت جوعا دعيه يعيش كما عشنا واذا اراد تغيير مصيره فيما بعد سيسافر هو ما حاجتنا نحن للسفر.. مستورين والحمد لله

- سنسافر لنكف عن التسول من اخوتك و ابيك الذي يعطينا من ماله بالقطارة حسب مزاجه وليت ما يعطيه لنا يكفي

وكأنها صفعته بكعب حذائها على مؤخرة رأسه و ذكرته بجرح لم يشعر بوجوده من قبل، وافقها بعد الحاحها الذي لم يتوقف و ادراكه ان وجعها مماثل لوجعه، وانهما يستحقان فرصه لتحسين وضعهم المالي و العيش بطريقة افضل، لمعت في عيناه السيارة المرسيدس التي ستكون ملكه ولن يحتاج لاستعاره سيارة اخيه او طلب توصيله من احد اصدقاءه ،وعزز من اصراره جملة ابيه :

بلدك اللي فيها مراتك يا ابني لازم تشوف مستقبلك

تفاجأ برده فعل ابيه وتشجيعه على السفر، اما اخوته فعارضوا الامر لكن اعتراضهم دفعه للتمسك بالسفر اكثر كان يشعر رغم اظهار محبتهم له على الدوام بحقد خفي يلمع في قلوبهم تجاهه.

ولكن رغم موافقته لم يرغب بالاستقرار خارج بلده طوال حياته و بعد انتهائهما من اجراءات السفر واقترب موعد الرحيل قال لأمل مذكرا :

- لن نعيش هناك طوال حياتنا

- كام سنة فقط يا يسري ونعود لأهلنا ومنزلنا ليكبر عصام وسط اقاربه

ولكنها لم تكن (كام سنة) كما قالت أمل، بل عشرون عاما، لم يرى خلالها عائلته سوى خمس مرات، على فترات زمنية متباعدة، عندما كان يأتي احد اخوته مع ابيه لأداء العمرة و لا يخلو لقاءه معهم من مشاجرات وجلسات عتاب مع ابيه بسبب ابتعاده الذي طال، ومع مرور الوقت انقطعت علاقته مع اصدقائه ومعارفه القدامى في مصر وكلما تذكر جملة زوجته (كام سنة) او جملة والده (بلدك اللي فيها مراتك) لعن الاثنين في سره؛ على عمره الذي ضاع في الغربة بلا طائل على حد قوله.

لم يكن يسري كأغلب زملائه المغتربين الذين عملوا معه وكانوا يقتصدون في معيشتهم حد الزهد القاتل، وكأنهم يجمعون المال لحيواتهم القادمة مكتفيين بالعيش على البلاط البارد وتناول الشابورة والماء واللهث وراء الطعام المجاني في كافتيريا المستشفى يجمعون الريال على الريال رافضين صرف اي نقود لإمتاع ايامهم على عكسه، فقد كان يعيش اليوم بيومه ويشتري بكامل راتبه ملابس باهظة الثمن وساعات يد اصلية وكاميرات رقمية ليتعلم فن التصوير الذي طالما كان هوايته، وعززت القصة التي سمعها من احد زملائه في احد الايام عن طبيب كان

يعمل سابقا في المستشفى لسنوات وكان يرسل لأبنائه كامل راتبه مكتفيا بالطعام الذي يقدم له من المستشفى وانتهى به الحال ميتا في سكن الاطباء ملفوفا في بطانيه مهترئة ولم يهتم ابناءه حتى باستلام جثته، وتركوه يدفن في ارض بعيده عنهم ، كان امرا مخيفا بالنسبة ليسري رأى نفسه مكان الرجل وبدأ يتسأل اهذه هي النهاية هل سيضيع مزيدا من سنوات عمره من اجل مستقبل ابنهما الذي اعتبره مدللا من قبل والدته، لم يعرف في كثير من الاحيان حقيقه شعوره تجاه ابنه اهو خوف عليه من دلع امل ام حنق لأنه تمنى في الماضي البعيد ان تخاف عليه امه وتحميه ولكنها لم تفعل وتركته هو و اخوته يعانون الامرين مع قسوة والدهم بلا مبالاة وكأنها ضيف شرف في حياته.

رغم تنصله الذي بدأ يتزايد كلما مرت السنوات، وبات يرفض المشاركة في مصروف البيت او دفع الايجار او فاتورة الكهرباء كما كان يفعل سابقا حتى ولو مرات قليله وكلما عاتبته وحثته على المساهمة يرد في برود وكأنه يتكلم عن شخص أخر :

-نحن هنا بسببك اتيتي بنا الى هذا البلد فلتتحملي انت العواقب

لوعدنا لبلدنا لن ادعك تصرفين مليم احمر على المنزل

كانت تنظر له بعينان متسعه استغرابا وعتابا :

- لو اني لم أت بك الى هنا لما شممت رائحة الملابس الماركات ولما امتلكت سيارة احلامك كنت ستظل كما كنت قبل السفر تتسول من اخوتك وابيك

رغم صمتها معظم الاوقات عليه الا انها عندما ترد على اهانته لها كانت تثير في نفسه غضب كالبركان لينهال بعدها بالسب والشتائم ويصيح غير مهتم بوجود عصام من عدمه :

جابتني معاها محرم عشان تزود فلوسها واعطتني الصابونة، يا شيخة حتى واجباتك الزوجية لا تؤديها وتسمين نفسك مؤمنة وتذهبين لأداء العمرة شهريا

في الآونة الاخيرة لم يعد حديثه عن لعن الملائكة لها لأنها رفضته في الفراش او تبججت في الرد عليه يثير في نفسها تأنيب الضمير كالسابق و رغم ايمانها القوي الا انها كانت تسأل نفسها من وقت لأخر لماذا لا توجد ملائكة تلعن الرجال ايضا، كانت تستغفر الله كلما ورد في ذهنها مثل هذه الافكار ولكنها تعود اليها من حين لأخر كلما ذكرها زوجها بلعنات الملائكة.

حتى انها في احد المرات صرحت له برغبتها في الابتعاد عنه، وان الطلاق ربما يكون حلا مناسبا بعد ان سئمت منه، وكلما مر عام تغير للأسوأ الى ان استحال وحش لا يطاق، متبجح واستغلالي، سليط اللسان اكثر من اي وقت مضى، وبات مصدر احباط لها و لعصام الذي ابتعد كثيرا عن والده ولم يعد يتحدث معه مطلقا، كان يرفض

سماع اي فكره عن الانفصال ليس حبا او احتراما للعشرة ولكن بقاءه معها كان بدافع الانتقام لأنه شاهد تحولات شخصية زوجته لتصير أمراه قوية وعلى استعداد لتصبح مستقله بات امرا مهددا له هو الذي يرى متوارثا عن اهله نظرتهم للمرأة وانها خلقت في قالبان لا ثالث لهما في المطبخ لإطعام زوجها و في السرير لإمتاعه .

لم يبالي بتغير مشاعر زوجته وابنه تجاهه، فقد كان هائم في عالمه يلقي أمواله كما يحلو له الى ان وصله قرار مدير المستشفى وكفيله بالاستغناء عنه شعر وقتها ان عالمه الذي خلقه و كان ملاذه بدء يتلاشى من بين يديه حاول وقتها استجداء عطف أمل لتصبح كفيلته عندما لم يجد وظيفه في مكان اخر لاكتسابه سمعه سيئة بين اطباء في عدد لابأس به من المستشفيات والمستوصفات في البلد ولكنها رفضت رفضا قاطعا؛ كانت تعلم انه اله المشاكل واذا تسبب او تعمد خلق مشكلة مع احدهم ستصبح هي الملامة وسيتم ترحيله ومعه عصام وهي قبلهم، لذلك فضلت عدم التدخل في أمور عمله ففي أول سنتين لهما في جدة عملت معه في نفس المستوصف في احد احياء جدة القديمة و شاهدت عن قرب بداية تغير

طباعه وشخصيته للأسوأ وتنفست الصعداء بعدما نقل كفالته على مكان اخر واصبحا يعملان في مكانين مختلفين، وأظهرت السنوات مدى طموحها ليصبح راتبها يفوق راتب زوجها الضعف رغم انهما بدئا معا من نقطة الصفر ولكنهما لا يتساويان الان ادرك انه بات خالي اليدين وليس لديه سبب اخر للبقاء وان وقت الخروج بلا عودة قد حان.

بعد ان جمع كل ما تبقى له من اغراض ومتعلقات شخصية ووزعها على الكراتين الاربعة، وضع في الاولى جميع ملابسه القديمة و الجديدة والتي لم تستوعبها الحقيبة الكبيرة التي سيحملها معه الى المطار واضاف بينها بعنايه بعد تغليف دقيق التماثيل الفخارية الملونة التي يهوى جمعها منذ فترة، والثانية ضمت جميع الادوية التي تحصل عليها خلسه من صيدلية المستشفى للضغط و السكر ومسكنات بدرجات جودة مختلفة و علب منشطات جنسية يبيعها بالحبة الواحدة، و الثالثة احتوت على البومات الصور التي التقطها على مدار السنوات الماضية صاحبتها حقيبة جلدية صغيرة مخصصه لأسطوانات ال DvD لأفلام اباحية و مجموعة من الكتب

الطبية ذات الورق اللامع المصقول التي اشتراها بمبالغ طائله لاستعراض ثقافته امام أمل وزملائه وان كان لم يقرأها كامله ولم يتصفح معظمها اما الكرتونة الرابعة والأخيرة كانت مخصصة للتلفاز البلازما الذي اشتراه منذ سنوات.

بعد انتهاءه ذهب الى المطبخ لإعداد خرا كوب شاي بالنعناع له في هذا المنزل وبينما كان منهمك في وضع المقادير بعناية كم اعتاد سمع صوت المفتاح في باب الشقة حبس انفاسه خوفا من ان تكون أمل قد عادت من العمل ولكنه تنفس بارتياح بعدما نظر للساعه المعلقة على الحائط في المطبخ، قال محدثا نفسه :

لاتزال السادسة والربع ولن تأتي الى المنزل قبل العاشرة والنصف الا اذا قامت قيامتها وقتها من الممكن ترجع قبل موعدها

ضحك واخذ جسده الضخم يتمايل على نغمات الموسيقى.

كان عصام قد عاد الى المنزل بعد ان انتهى من الدراسة وتناول الغذاء مع زميل له ، ادهشه منظر الكراتين البنيه المتراصة المكتوب على كل واحده منها د/يسري سليمان و حقيبة السفر الضخمة الممتلئة حتى يكاد قماشها يتمزق، مشى داخل المنزل بخطى حذرة حريصة وهو يستمع لصوت الموسيقى يعلو وينخفض بغته وصوت والده يغطي على صوت ورده (خليك هنا خليك بلاش تفارق...) شعر يسري بحركة ولده وتعمد اظهار لامبالاته بشكل مبالغ فيه بابتسامة مصطنعة كسر بها حاجز الصمت بينه وبين ولده :

من حسن الحظ انك اتيت لأودعك قبل ان اسافر

تعجب عصام من كل ما يحدث اقترب من هاتف والده واغلق الاغنية :

-الى اين ستذهب فجأة وما كل تلك الكراتين؟

- اغراض قررت بيعها قبل ما اسافر يا بني.. ماذا سأفعل.. امك رفضت اعطائي المال

لم يصدم عصام بمعرفة قرار سفر والده المفاجئ كان يتمنى ان يأتي هذا اليوم منذ ان عاد من مصر و سئم من تصرفات والده ولكنه ذهل ان والده جمع كل قشه اشتراها بأمواله في المنزل وكأنه جمع كل ذكرياتهم ليتخلص منها، بعد لحظات من الصمت الحذر رن جرس الباب ليسرع عصام نحوه بانفعال متعمدا ان يسبق والده ، فتح الباب فوجد رجل في اواخر الستينات :

- مساء الخير، العربية جاهزة عند باب البيت انا جيت اقفل الكراتين كويس واتمم عليها اذا كانت بحاجة لتغليف زيادة قبل الشحن

-الشحن؟

تسأل عصام وهو ينظر لوالده معلنا على وجهه ابتسامه ماكره وكأنه سرقها من على وجه يسري الذي قد اختفت ابتسامته وحل مكانها نظرات غاضبه يداري بها شعوره بالحرج.

لم يصدم عندما علم بشأن الشحن؛ فهو على معرفة تامة بألاعيب والده ما جرحه هو تلقائيه يسري مع ما يفعله ببساطه وكأنه يقوم بأمر روتيني وكأن جرح اقرب الناس له امر لابد منه و واجب النفاذ، تركا موظف شركة الشحن ينقل الكراتين خارج الشقة وتوجها الى غرفه النوم ليأخذ يسري حقيبته السوداء الصغيرة بحجم كف اليد و الموضوع بها دواء الضغط والسكر ويتأكد من انه لم ينسى شيئا تأمله ابنه مطولا في المرآة المشروخة من المنتصف وكأنه يراه للمرة الاولى لا يعلم منذ متى حدث الشرخ، ليخترق يسري جدار الصمت

- بسيطة

- الكذب علينا طوال السنين المنصرمة ليس امر بسيط ورحيلك المفاجئ من دون علمنا وكأنك عازب تعيش بمفردك وتتركنا في الغربة ليس بالشيء البسيط وانك تعيش على تعب أمي ليس بالأمر البسيط

احمر وجه يسري ولم يتمالك نفسه خاسرا معركة هدوء الاعصاب التي قرر الالتزام بها حتى رحيله

- يا ابن امك... هي اللي جابتنا هنا تستحمل بقى وانا مش مسامحها ست جاحده وانانيه، قدام ربنا اخيرك اذا كنت ترغب في العيش معها او معي على الاقل تدخل هناك جامعة عليها القيمة

- لا املك في دنيتي سوا أمي لأعيش من أجله، يكفي ان رجلا واحدا قد خذلها

كان يعلم ان عصام سيختار امه ولكن جملته اصابته بالغيظ ليلتقط محفظته بعصبيه وقبل ان يخرج من الغرفة

- انسى ان ليك اب

- عارف

جلس عصام على مؤخرة السرير وهو يفكر في الدقائق القليلة الماضية وكيف ستتقبل أمه ما حدث فجأة ذهب نحو باب الشقة لعل والده غير رأيه لعلها احدى مزحاته الثقيلة ولكنه قد رحل تاركا باب الشقة مفتوح على مصرعه.

اخذ عصام يرتب قليلا من الفوضى التي احدثها والده اثناء جمع اغراضه متحسرا ومصدوم لم يكن يتوقع انه سيأتي يوم يواجه والده و جملته القاسية الاخيرة وان كانت ذات وقع مبتذل بعض

الشيء كحال المسلسلات والافلام المصرية التي يتابعها والده الا ان الطريقة التي قال بها الجملة اخترقت قلبه مثل سهم حارق كان يحمل وجه تعابير جاده لم يرها قط في والده حتى في اكتر لحظات غضبه لقد كانت جملة حقيقية من رجل اعتاد الاكاذيب الى ان اصبحت جزئا منه.

لم يكن يعلم كيف سيخبر والدته بما حدث كان خائفا على صحتها من التدهور كان مولعا بها وبالنسبة له كانت أكثر من أم كانت بمثابة إله يمشي على الارض، مر الوقت بتباطئ وكأن سلحفاة كسيحه تحرك عقاربه.

صدمت عندما فتحت باب الشقة ووجدت اغراض كثيره مفقودة من مكانها، اشتمت رائحه رحيله حتى قبل ان يخبرها ابنها بأي شيء، كل ما حدث كان مكتوب على وجهه، علمت ان اللحظة التي توقعت قدومها منذ زمن قد حدثت، وانتهى الامر، وكأنها تلقي نكتة معتادة:

ليأخذ ما يشاء.. لماذا لم يأخذ الجدران معه ايضا؟

فهرس

طنط ماما.....3

رائحة الجحيم..... ٣٠

كراتين د/يسري سليمان..... ٦١